الكتاب في منسَكِه

مَنْ لِلكتابِ بِناسِكٍ وَرِعٍ
يَحْنو عليه كما على وَلَدِ

فَيَقوتُهُ بِالحُبِّ مُحْتَضِنًا
وَيحوطُهُ بالرُّوحِ وَالجَسَدِ

وَيَزينهُ بِتراجمٍ شَهِدَتْ
للرَّاحِلينَ، وَكُلِّ مُجْتَهِدِ

مَنْ لِلكتابِ وَقَد تنازَعَهُ
الإِهمال عن جَهْلٍ وَعَن نَكَدِ

غيرُ الَّذي رَقَّت مَشاعِرُهُ
فَتَحَرَّرَتْ مِنْ رَبْقَة الرَّغَدِ

في غُرْفَةٍ سَمْحاءَ مُتْرِعَةٍ
بَرَحيقِ فَكْرٍ طَيِّب الزَّبَدِ

إن زُرْتَهُ فيها تَجِدْ هَرَمًا
مِنْ نادِرِ المَخْطوطِ طَوْعَ يَدِ

وَ«مُفَرِّجٍ» في لَيْلِ وَحْدَتِهِ
بَيْنَ الرُّفوفِ وَلَيْسَ من أَحَدِ

لِيُزيلَ هَمًّا طالَما اسْتَتَرَت
وَجَناتُهُ في غَمْرَةِ الأَوَدِ

إِبَرُ التَّأَنِّي في مَباحِثِهِ
تَخِزُ المَعاني وَخْزَ مُتَّئِدِ

فَإِذا الحَقائِقُ في بَطائِنِها
نَسْجٌ جَلِيُّ الخَيْطِ وَالصَّدَدِ

«جوزيف» كَمْ قَلَم بَرَيْتَ وَكَمْ
مِنْ دَفْتَرٍ أَنْقَذْتَ، بِالعَدَدِ

يَسْتَرْجِعُ التَّاريخ رؤيَتَهُ
في راحَتَيْكَ، وَكُلُّ مُسْتَنَدِ

وَلَقَدْ عَشِقْتَ الحَرْفَ مُنْقَطِعًا
لِرِسالَةٍ تَشْقى بِلا سَنَدِ

وَجَمَعَت ما ضَنَّ التُّراثُ بِهِ
مُتَباهِيًا، مِنْ بارِحٍ وَغَدِ

وَقَطَفْتَ وَعْدَكَ مِنْ جَنى أَدَبٍ
ما خانَ يَوْمًا لا، وَلَمْ يَحِدِ

عَنْ غايَةٍ وَجَدَتْ لَها سَكَنًا
في هَيْكَلٍ باقٍ إِلى الأَبَدِ

آمالُنا يا صاحِبي رُقَعٌ
في ثَوْب عبدٍ غيرِ مُفْتَقَدِ

وَصَريرُ بابٍ شاخَ مِنْ وَهَنٍ
وَسَحابَةٌ رُبِطَتْ إِلى وَتَدِ

وَفَّاكَ عَدْلُ اللهِ حَقِّكَ ما
دامَ الرَّجاء يُضيءُ في الجَلَدِ

وَأَبانَ فَضْلَكَ في مَعارِجِهِ
وَحَماكَ مِنْ ضَرَرٍ وَمِنْ حَسَدِ

عبده لبكي

ندوة حول كتاب التّوراة والتّاريخ

نشر دار الأجيال

«جوزف مفرّج»

الجمعة ٩ آذار ٢٠١٨

مفهوم اللّه

تُعتبر التَّوراة في الإيمان المسيحيّ، جزءًا أساسيًّا من التُّراث الدِّينيّ، ولا نزال حتّى اليوم، نطلق على العهدين القديم والجديد، عبارة «الكتاب المقدّس»، فيما لِلفظة «مُقدّس» بُعدٌ لاهوتيّ يتّصل بالذَّات الإلهيّة.

فالمقدَّس يعني التّنزُّه عن كلِّ ما هو دنيويّ ماديّ نفعيّ، بعيدًا عن الانشغالات البشريَّة الزَّائلة، ورفضًا للصِّراع على المقتنيات الفانية، أيًّا يكن نوعها.

والمقدّس هو التجرُّد من الحاجات الجسديَّة الجامحة، الَّتي تؤدِّي إلى ارتكاب الخطيئة، لأنّ الخطيئة مبنيَّة على الفعل وردود الفعل، متمحورةً حول «الأنا الغريزيَّة» الَّتي تُناصِب الآخر العداء، بل تتعدّى على حقوقه الطَّبيعيَّة، وتجهد لاستلابه إيَّاها، في استباحةٍ لا أخلاقيَّة لتلك الحقوق. ثمّ تبرِّر في الوقت نفسه هذا السّلوك مدَّعِيَةً أنّه دفاعٌ عن الكينونة الذَّاتيَّة؛ دفاعٌ حلّله الله لخاصّته.وفي هذا الاعتقاد الفاسد تكمن المشكلة، وما نزال في زمننا المعاصر نعاني من نتائجها المهدّدة للوجود البشريّ على الأرض.

ثمّة مشكلة أخرى ألا وهي؛ «مفهوم الله» والخلاف على مفهوم الله يُغَلِّب الغيبيّات والماورائيَّات على الواقع، بحيث ينسخُ الواقعَ لحساب الوهم، ممّا يجعل الإنسان مستعدًّا للتّضحية بحياته، من أجل الحصول على غير الأكيد، وغير المدرك بأدوات الحسّ، بدلاً من الأكيد القائم في المحيط المحسوس.

هذه المشكلة هي السّبب الأساس في تمايز الشّعوب وتباعدها وتنافرها، ومحاولات سيطرة بعضها على بعض. الله في المفهوم العقليّ لا الغريزيّ، وفي المنطق من حيث هو منطق، إنَّما هو الحقّ المطلق، والخير المطلق، والعدل المطلق، وبهذه الصّفات مجتمعة، هو الحبّ المطلق. فكيف يمكن له أن يَفضُلَ إنسانًا على آخر، أو يصطفي لنفسه شعبًا دون آخر، أو يأمر بالقتل وتدمير الحياة الَّتي أوجدها بكلمته، فقط لإرضاء فئة من البشر، هدفها الاستئثار بالسّلطة والخيرات والثّروات، وكلّ ما يُلغي المقدَّس، فضلاً عن استعباد من يُصَنَّفون مُختلفين، في حينَ أنّ كلّ انتماءٍ أيًّا تكن طبيعته، أمرٌ مشكوك فيه، وخصوصًا الانتماء الموصوف بصلة الدَّم، إذ ليس ثمّة ما يؤكّده أو ينفيه، عبر مسيرة التّاريخ وفي غمرة حَدَثانِه.

عندما يسخّر الإنسان الله، لحاجاته وغرائزه وأفعال شرِّه، تنقطع الصّلة تلقائيًّا بينه وبين الله، وعندما يستخدم الإنسانُ الله عن وعيٍ أو عن غير وعيٍ لتحقيق مطامعه، وبلوغ أهدافه، والتّمتّع بلذائذ العيش ورذائله، يكون قد اختار الدّنيا الزّائلة بدلاً من الأبديَّة الخالدة، شأنه شأن آدم كما في أسطورة التّوراة المنقولة عن الأسطورة البابليَّة، حيث تمّ الانفصال بين آدم والله بسبب انشغال آدم بشؤون «أناه» غير آبه لمشيئة الخالق.

إنَّ مفهوم الله وعلاقة العالم المادي بالعالم الرّوحي، هما الهمّ الأوّل للفكر، الّذي لم يتمكّن يومًا من اكتناه السرّ الكامن في أساس الوجود. لذلك نراه يلجأ تارةً إلى التّفسير عن طريق الأسطورة، وطورًا إلى التّبرير عن طريق الشّريعة الَّتي غالبًا ما يجري تطبيقها بالإكراه والتّرهيب، الغَيبيّ. وبما أنّ الإنسان يأسره الخوف الكبير من اللاَّمرئيّ في المطلق، والمتمظهر بالخارق، وغير المعروف بالمدرك العقليّ، فإنّه يصبح إذ ذاك غنيمة سهلة المنال، يتنازعها الأقوياء المستبدّون أفرادًا أو قبائل، بغية إخضاعه واستخدامه.

أمّا الحريَّة وهي جوهر الله، منحها للكائن الإنسانيّ، محترمًا صنيعته، فقد ديست وامتهنت خلال التَّاريخ، وجُوبِهَ أصحابُها بالقمع والعنف ونُكِّل بهم. هذه الحريَّة الَّتي بها يتمّ عدل الله عبر ثوابه وعقابه، لم يحترمها من يدّعي الحرص على إرادة الله، جاعلاً من نفسه وصيًّا عليها.

وحده المسيح الَّذي هو الطَّريق والحق والحياة، وقّع بدمه على الدستور الإلهيّ، وقد كان بوسعه أن يقاوم الشّر بإرادته، إلاَّ أنّ الله لا يصدر عنه إلا الخير والحبّ، وإلاَّ لما كان إلهًا. وحده المسيح الّذي مملكته ليست من هذا العالم وقد عرفناه، إذ رأيناه وسمعناه وأكلنا من خبزه وشربنا من خمره، ورافقناه على طريق التّضحيَّةِ، لتبديد غيوم الشّرِّ، لأنّ الشّر لا يقاوم إلاّ بالتّضحية، وحده يتجسّد فيه المقدّس.

أيُّها السَّادة،

عندما أقرأ بعض ما جاء في التّوراة من أحداث تاريخيَّة حافلة بالحروب والعداء، والإجرام، أشعر بالاشمئزاز، فأشكّ في هذا الإله، حتّى لو كان مستنسخًا

عن آلهة بلاد ما بين النّهرين. هذا الإله الّذي كان ولا يزال يزرع الحقد والضّغينة في قلوب أتباعه، بعدما صنعوا صورته من ملامح صورتهم، ونحتوا تمثاله من صخر قلوبهم، حتّى غدا الحقد على الأمم متأصِّلاً فيهم. أمَّا الوصايا العشر الّتي اختصرها بوصيّة واحدة وهي: «لا تكذب» فقدِ انتُهِكت في الصّميم، بالكذب على الله.

وهل يمكن أن نصدِّق أن ذلك الإله، هو الله الحقيقي؟! البشريَّة اليوم في قلق على مصيرها الوجودي، بعدما استشرى الشّرّ وعمّ الفساد العالم، فأيّ إلهٍ هو هذا؟ إله الانتقام والغدر والغضب وسفك الدّماء!؟

إنّ بعض قادة العالم اليوم، يؤمنون بهذا الإله الخرافيّ، الّذي أطلق العنان لشهوات أتباعه التّوراتيّين، بدعوى الحقّ في السّيطرة على الأمم، والاستيلاء على ممالكها، واستعباد أبنائها. والخطر كلّ الخطر هو أنّنا نسير إلى الفناء، بسبب موروث من الهوس بإلهٍ زائف. ولربّما أهمّ ما غنِمَه التوراتيّون من جنَى مكوثهم في بابل أو «باب إيل»، هو شريعة «حمورابي»، وقد اختصروها بما هو الأعزّ على قلوبهم، أي «السِّنّ بالسِّنّ والعين بالعين». بل تخطَّوا ذلك، فجعلوا الله يُحِلُّ لهم التّعدي على غيرهم من الشّعوب، منذ ما قبل تاريخ السَّبي أي منذ غزو بلاد كنعان، الّذي استغرق عهودًا طويلة، مَعَ ما تحصّل عن ذلك من قتل وسبي وسلب ونهب وتدمير على غرار «داعش».

التّكفير إذن ليس بدعةً جديدة، أو بالأحرى حيلةً جديدة، بل هي عقيدة متأصّلة في نفوس أولئك الخارجين على إرادة الله، الّذين لا يزالون إلى الآن يستعبدون الأمم، بحُجّة أنّ الله اختارهم واصطفاهم. والحقيقة أنَّهم هم الّذين

يحوِّلون الله إلى أداة لتخريب حضارة الإنسان، أو سرقتها على الأقلّ. وهذا هو الكفر بعينه. ثُمَّ إِنَّهم لا يزالون مثابرين على ما تلقّنوه ممَّن سبقهم منذ ثلاثة عشر قرنًا قبل المسيح. فيما آلهة ما بين النّهرين لم تكن تتوسّل الشّرّ لبلوغ مآربها حتّى لو اتَّسمت بالقوّة والجبروت.

والسُّؤال الآن في منطقتنا، وخصوصًا في لبنان؛ لماذا لا يدعونا ننعم بالسّلام!؟ لماذا يوقدون نار الفتن باستمرار؟! لماذا يشحنون الأيّام بكهرباء القلق؟! ألكي يُصَفِّق لهم من يقف وراء أبواب الجحيم؟! وفي يقيني أن لا خلاص للعالم، هذا الّذي تخيَّل تكوينه البابليُّون، فوضعوا بين يدي الإنسانيَّة كنزًا يشهد لعظمة الخَلْق، إلاَّ عن طريق «المسيح»، الّذي بامتناعه عن الرَّدّ على من امتحن الوهيّته، بالعذاب الجسدي، ورفضه مبدأ «السِّنّ بالسِّنّ والعين بالعين»، انتصرعلى الموت، وفتح لنا الباب لمعرفة الله الحقيقي، وملاقاته، الله السّرمديّ، الله الّذي لا وجود له، إلاّ في العهد الجديد المعقود بين الله والإنسان.

عبده لبكي